«مَنْ عَسَاهُ يَكُونُ؟»

لقاء بداية السنة للبالغين والطلبة الجامعيّين من أعضاء شراكة وتحرّر

استاد "ميديولانوم فوروم" بمدينة أسّاغو (ميلانو) في 28 أيلول/سبتمبر 2019

خوليان كارّون

دعونا نسأل الروح القدس فقر القلب ذاك، الذي يجعلنا مستعدّين لأن ندع المسيح يلمسنا.

هلمَّ أيّها الروح القدس

في مقابلة أجريت معه مؤخّرًا، أجاب الفيلسوف والمحلّل النفسيّ أمبرتو غاليمبرتي على السؤال «أيّ قلق هو الأكثر تكرارًا؟» قائلا: «القلق الناتج عن العدميّة. فالشباب ليسوا على ما يرام، لكنّهم لا يفهمون حتّى سبب ذلك. إنّهم يفتقرون إلى الهدف. لقد أصبح المستقبل بالنسبة لهم تهديدًا بعد أن كان وعدًا». ثم أضاف مباشرة: «في عام 1979، عندما بدأت عملي كمحلّل نفسيّ، كانت المشكلات عاطفيّة وإحساسيّة وجنسيّة. أمّا الآن فتتعلّق بغياب المعنى» (أمبرتو غاليمبرتي، «بعيدًا عن المنزل في سنّ الثامنة عشرة: نحن بحاجة إلى خدمة مدنيّة لمدّة 12 شهرًا»، مقابلة مع س. لورنسيتّو في صحيفة كورييري ديللا سيرا، 15 أيلول/سبتمبر 2019). يبدو لي أنّ هذه التأكيدات تحدّد بشكل جيّد ماهيّة التحدّي الذي يواجهه كلّ فرد منّا. فنحن نراه يوميًّا، على المستوى الشخصيّ والاجتماعيّ، كما رأينا في هذه الأيام مع خبر نهاية الحياة. إنّ الخطر كبير لدرجة أنّنا لا نستطيع أن نحاول التقليل منه. وأيّ محاولة في هذا الصدد تؤكّد فقط مدى أهميّته.

لا يمكن الردّ على هذا التحدّي بخطابات عن النظم القصوى، بأخلاقيّة أو بعاطفيّة، لا نوليها الوقت الذي تستحقّه. فهنا تدخل في العمق الخبرة التي يقوم بها كلّ شخص في حياته. والبروفيسور غاليمبرتي نفسه مدرك لهذا الأمر، لدرجة أنّه على السؤال: «وما معنى الوجود؟» أجاب قائلا: «يجب أن أبحث عنه في أخلاقيّات الحدود، في ما أسماه عليه اليونانيّون بالقدر الصحيح». يمكن للجميع التحقّق ممّا إذا كان بمقدور هذه الإجابة ملء «غياب المعنى» ومواجهة العدميّة التي شجبها بنفسه.

لا أعرف ما إذا كانت هذه الإجابة من شأنها إرضاء مؤلّف مثل هويلبيك، الذي يكتب في رسالة عموميّة إلى برنارد هنري ليفي: «أجد أنّه من المؤلم أن أعترف بأنّني شعرت على نحو متزايد بالرغبة في أن أكون محبوبًا. بطبيعة الحال، أقنعني تأمّل بسيط بسخافة هذا الحلم، فالحياة محدودة والغفران مستحيل. لكنّ التأمل لا يمكن أن يفعل شيئًا حيال ذلك، فقد استمرّت الرغبة، ويجب أن أعترف أنّها لا تزال موجودة» (ف. سينيسي، "ميشيل هويلبيك، الحياة نادرة، تراتشي، العدد 2019/6، ص 65). حتى هويلبيك، مثله مثل غاليمبرتي، ينظر إلى حدّ الحياة، لكنّ هذا لا يلغي في نفسه – على الرغم من أنّه يبدو له سخيفًا – الرغبة في أن يكون محبوبًا.

«كم هو مهمّ أن نشعر بأسئلة رجال ونساء عصرنا!»، قال البابا فرانسيس مؤخّرًا للمشاركين في الاجتماع الذي نظّمه المجلس البابويّ لتعزيز التبشير الجديد (21 أيلول/سبتمبر 2019). فإلى جانب حقيقة أنّها أسئلتنا أيضًا في العديد من المناسبات، فهي تدفعنا لأخذ السياق الثقافيّ الذي نعيش فيه بالاعتبار. وللردّ على هذا التحدّي، اقترح علينا دون جوسّاني طريقة: الخبرة.

1. الخبرة، الكلمة الرئيسيّة لكلّ شيء

«الرحلة إلى الحقيقة هي خبرة»، كان موضوع تأمّلنا هذا الصيف. والآن، بعد ما عشناه، يمكننا الإجابة على

السؤال: "هل الطريق إلى الحقيقة هو حقًا خبرة؟». ما هي الحقائق التي تؤكّد ذلك والتي حدثت لكلّ واحد منّا في هذه الأشهر؟ إذا لم نرَ الأشياء التي نتحدّث عنها تحدث في خبرتنا، فلن يقنعنا شيء – نحن والآخرين – بحقيقتها. هذا هو سبب الإصرار الجذريّ لدون جوسّاني على الخبرة، فبالنسبة له «تصبح الحقيقة واضحة في الخبرة»، كما قال للطلاب الجامعيّين في عام 1996 (على الدرب، 1992-1998، دار نشر بور، ميلانو 2014، ص 311). لذلك – يؤكّد – «الخبرة هي الكلمة الأساسيّة لكلّ شيء» (الوعي الذاتيّ للكون، دار نشر بور، ميلانو 2000، ص 274).

وبالتالي، إذا كنا لا نريد أن نضيّع الكاريزما في الدرب، يجب علينا أن ندرك ما إذا كنّا نقوم بالفعل بخبرة. يكرّر جوسّاني: «أيّ شخص لا يبدأ من الخبرة، يخدع، يريد أن يخدع نفسه والآخرين». ويتابع قائلا: «لا يمكن للإنسان أن يبدأ إلا من الخبرة»، لأنّها «المكان الذي تبرز فيه الحقيقة [...] بوجه معيّن، بمظهر معيّن، بهيئة معيّنة» (المرجع نفسه). من اللافت للنظر كيف أنّ معتنقًا متحمّسًا لمذهب العدميّة مثل هويلبيك يشهد على ذلك في كلّ دراميّته. فقد أخبره تفكيره عن عبثيّة الرغبة في أن يكون محبوبًا، لكنّ التأمل لا يمكن أن يفعل شيئًا ضدّ الحكم الذي كان يعتريه دون إمكانيّة الاعتراض عليه: «لقد استمرّت الرغبة، ويجب أن أعترف أنّها لا تزال موجودة». الخبرة تتمثّل في هذا الحكم. لا شيء يمكنه قمع تلك الرغبة ولا شيء يمكنه إشباعها.

وهذا يوضح لنا، مرّة أخرى، مدى أهمّيّة الإشارة إلى الطريقة التي يقدّمها لنا دون جوسّاني منذ الفصل الأوّل من "الحسّ الدينيّ": إنّ الانطلاق من الخبرة هو الأمر الوحيد الذي يسمح لنا بمعرفة أنفسنا والواقع، وبفهم كيف تسير الأمور، وهذا يحرّرنا من العبوديّة تجاه الصور والأنماط والاختزالات التي غالبًا ما نخضع لها بتأثير من الخارج، أو من عقليّة الجميع، أو بما يناسبنا في الوقت الراهن.

ولكن ما هي الخبرة؟ «تتطابق الخبرة، بطبيعة الحال، مع "تجربة" شيء ما، ولكنّها تتطابق خاصّة مع الحكم الصادر على ما نختبره. "فالمرء عبارة قبل كلّ شيء عن وعي. [...] لذلك فإنّ ما يميّز الخبرة هو فهم معنى الأشياء"» (لويجي جوسّاني، الحسّ الديني، مطبعة البطريركيّة اللاتينيّة، القدس 2006، ص 14). لذلك يمكننا القول إنّ الطريق إلى الحقيقة هو خبرة فقط إذا قمنا بتنشيط المقارنة الواعية بين ما نشعر به والاحتياجات التي تشكلنا. لا يكفي أن نكرّر المعادلة كتعويذة إذا ما اختزلنا بعدها الخبرة إلى ما نشعر به، إلى أمر عاطفيّ، إلى مظهره الأكثر زوالًا. الخبرة المسيحيّة نفسها، الحدث المسيحيّ نفسه، غالبًا ما يستسلم لهذا. لذلك فإنّ دون جوسّاني حريص على جعلنا نفهم جيّدًا ما يعنيه بكلمة "خبرة".

«الخبرة طريقة أساسيّة تعزّز الطبيعة من خلالها تطوّر الوعي ونموّ الشخص. لهذا لا تكون خبرة إن لم يدرك الإنسان فيها أنّه "ينمو" [ليس من التلقائيّ أن ندرك ما يحدث لنا]. لكنّ الإنسان، لكي ينمو فعليًا، بحاجة إلى أن يستفزّه أو يساعده شيء مختلف عنه، موضوعيّ، شيء "يلتقي به"». (جوسّاني، الرحلة إلى الحقيقة هي خبرة، ريتسولي، ميلانو 2006، ص. 155).

تنطبق هذه الطريقة، الصالحة في أيّ مجال من مجالات المعرفة، على معرفة السرّ الإلهيّ أيضًا: «لقد أدرك البشر حضور الله في العالم من خلال خبرة حقيقية وموضوعيّة». ويواصل جوسّاني قائلا: «يكتب القدّيس يوحنّا بقوّة للمسيحيّين الأوائل: "نعم، لقد أظهرت الحياة نفسها ونحن رأينا ونشهد ونعلن لكم تلك الحياة الأبديّة التي كانت مع الآب وتجلّت لنا". من خلال خبرة حقيقيّة وموضوعية [يردّدها ثانية]، يظهر حضور المسيح في كنيسته في تاريخ الإنسان الواعي. وحتّى اللقاء بالجماعة المسيحيّة أو التحقّق من رسالته [...] هي بدورها خبرة حقيقة وموضوعيّة [يصرّ دون جوسّاني]» (المرجع السابق، ص 156). يكرّر جوساني ثلاث مرّات أنّ ما نتحدّث عنه هو هدف «خبرة موضوعيّة حقيقيّة». «حقيقيّة»، أي فعليّة، لا تحسد أيّة خبرة أخرى ما عليها. و«موضوعيّة»، لأنّها الارتطام بشيء خارج نفسي، ليس من إنتاجي.

قبل عشرين يومًا تقريبًا، في سلفادور دي باهيا، قال أحد الأصدقاء: «كنت قريبًا من البيئة البروتستانتيّة منذ

طفولتي. وعندما أصبحت أكبر سنًا، قبلت العماد، إلى أن عدت لا أرغب في العيش مثلهم؛ لذلك غادرتهم وأمضيت حوالي عام واضعًا نفسي موضع تساؤل وحتّى السخرية من الدين. بحثت عن أماكن تبشّر بالعقل وبالعلم المضادّ للدين. ولكن في كلّ هذا، لم ترضني الحياة التي كنت أعيشها. كنت أرغب في شيء آخر، لكنّني لم أكن أعرف ما يكون. بدأت أدرس الديانات الأخرى، تاركًا الكنيسة الكاثوليكية جانبًا، لأنّها على خطأ بالنسبة لي. حتى قرّر صديق طفولتي أن يدعوني لحضور حفل تنكريّ لمجموعة من شباب منطقتي. ذهبت إلى هناك، لأنه لم يكن حفلا دينيًّا. ولكن عندما غادرت الحفلة بدأت أتساءل عن سبب قراءتي كلّ شيء وتجاهلي الكنيسة الكاثوليكيّة دائمًا. بدأتُ آخذ أسئلتي على محمل الجدّ. لم أبدأ بالقراءة عن الكنيسة الكاثوليكيّة فحسب، بل أيضًا البحث عن إجابة تتوافق مع عقلي وقلبي. وفي بحثي بدأت أشعر أن ما قرأته عن الكنيسة الكاثوليكية يتوافق معي. كان ذا معنى بالنسبة لي. لذلك قرّرت أن أتحوّل إلى الكاثوليكيّة و قبلت العماد والمناولة الأولى والتثبيت. لقد كنت سعيدًا، ولكنّي أردت العثور على شيء أكبر. أردت مكانًا أقيم فيه. كنت رأيت العديد من البيئات، التي تركتني في حالة من الحزن الشديد، لأنّها أعطتني صورة عن كنيسة منغلقة جدًّا، وحذرة دائمًا من خطر قيام بابا مزيّف، وأشياء من هذا القبيل. وتساءلت: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى الكاثوليكيّة؟ لذا تابعت بحثي، حتى وجدت مقابلةً قال فيها كارّون: «إذا لم نعتقد أنّ فرنسيس هو العلاج فذلك لأنّنا لا نفهم المرض» (كارّون، مقابلة لجون ألين وإينيس سان مارتن، Cruxnow.com، 21 حزيران/ يونيو 2017). لقد وجدت هذا الأمر مثيرًا للاهتمام، لأنّه كان مختلفًا، وحتّى لو في أماكن أخرى كان ينتهي بنا المطاف دائمًا إلى النتيجة: «ليكن إيماننا بربّنا يسوع المسيح»، إلا أنّ الطريقة التي قال فيها كارّون هذه الكلمات لم تكن مجرّد كلمات على الورق، بل أمل حيّ. أتذكر مقطعًا من المقابلة لفتت انتباهي. فقد تحدّث عن بعض الأزواج غير المتزوّجين الذين بدؤوا مواعدة عائلات شراكة وتحرّر، وحتى لو لم تقل تلك العائلات شيئًا حول حالتهم أمام الكنيسة، إلا أنّ هؤلاء الأزواج قرّروا الزواج فقط لأنّهم رأوا تلك العائلات والتقوا بها. وهكذا قلت: هذا مثير للاهتمام بالنسبة لي، هذا ما كنت أبحث عنه! لذلك بدأت بتتبّعها. أردتُ أن أعرف من يكون كارّون وهؤلاء الأشخاص. وتابعتهم، وقابلت أعضاء الحركة هنا في سلفادور. وبقيت لأنّني رأيت شيئًا مختلفًا، وهو أمر يتوافق معي. ربّما لم أكن لأبقى في الكنيسة لو لم يكن بفضل هذا المكان، لأنّني بدأت أنظر إلى الواقع بطريقة جديدة وألقي نظرة جديدة على نفسي، وحبّ أكبر». يذهلني أنّ شخصًا متحمّسًا جدًا ويبحث عن إجابة لاحتياجات قلبه، وتحديدًا بسبب ولائه لخبرته، لم يسعه أن يتوقّف قبل أن يجد حقيقة – تاريخيّة، موضوعيّة، وجهًا ملموسًا للكنيسة – قادرة على جذبه والإجابة على توقعاته التكوينيّة.

مع الأخذ في الاعتبار ما قيل حتى الآن، يمكننا أن نفهم لماذا اعترف دون جوسّاني، في مرحلة معيّنة: «إنّ أهمّ ما قلته في حياتي هو أنّ الله، السرّ، قد كشف عن ذاته، ونقل نفسه إلى البشر بطريقة أصبح فيها موضوع خبرتهم. يصبح السرّ هدفًا لخبرتنا نحن أيضًا؛ يصبح هدف خبرتنا فيعرّف عن نفسه بعلامة مصنوعة من الزمان والمكان» (الوعي الذاتيّ للكون، المرجع المذكور، ص. 164-165).

وهذا أمر بالغ الأهمّيّة. «لكي يصبح معروفًا، دخل الله حياة الإنسان كإنسان، وفقًا لشكل إنسانيّ، بحيث كانت أفكار الإنسان وخياله وعاطفته "محصورة" ومنجذبة إليه» (جوسّاني-إلبيرتو-برادس، توليد آثار في تاريخ العالم، بور، ميلانو 2019، ص. 36). هذا هو الاختبار الذي يوثّق حضور الله في التاريخ، أي أنّ المسيح يعمل في حياتنا: أنّنا "محصورون"، ومنجذبون إليه.

والإنجيل يشهد بشكل مذهل على هذا الأمر.

«سَأَلَ وَاحِدٌ مِنَ الفَرِّيسيِّينَ يَسُوعَ أَنْ يَتَناوَلَ الطَّعَامَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الفَرِّيسيِّ وٱتَّكَأ. وإذا ٱمرَأَةٌ، وَهِيَ الَّتِي كانَتْ في المَدِينَةِ خَاطِئَة، عَلِمَتْ أَنَّ يَسوعَ مُتَّكِئٌ في بَيْتِ الفَرِّيسيّ، فَجَاءَتْ تَحْمِلُ قَارُورَةَ طِيب. وَوَقَفَتْ بَاكِيَةً وَرَاءَ يَسُوع، عِنْدَ قَدَمَيْه، وَبَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيهِ بِالدُّمُوع، وتُنَشِّفُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وتُقَبِّلُ قَدَمَيْه، وَتَدْهُنُهُمَا بِالطِّيب. وَرأَى الفَرِّيسِيّ، الَّذي دَعَا يَسُوع، مَا جَرَى، فَقَالَ في نَفْسِهِ: «لَوْ كانَ هذَا نَبِيًّا لَعَلِمَ أَيَّ ٱمرَأَةٍ هِيَ تِلْكَ الَّتي تَلْمُسُهُ! إِنَّهَا خَاطِئَة». فَأَجَابَ يَسوعُ وَقَالَ لَهُ: «يا سِمْعَان، عِنْدِي شَيءٌ أَقُولُهُ لَكَ». قالَ الفَرِّيسِيّ: «قُلْ، يَا مُعَلِّم». قالَ

يَسُوع: «كانَ لِدَائِنٍ مَدْيُونَان، أَحَدُهُمَا مَدْيُونٌ بِخَمْسِمِئَةِ دِينَار، والآخَرُ بِخَمْسِين. وإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا ما يُوفِيَان، سَامَحَهُمَا كِلَيْهِمَا. فأَيُّهُما يَكُونُ أَكْثَرَ حُبًّا لَهُ؟». أَجَابَ سِمْعَانُ وَقَال: «أَظُنُّ، ذَاكَ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَر». فَقَال لَهُ يَسُوع: «حَكَمْتَ بِالصَّوَاب». ثُمَّ ٱلتَفَتَ إِلى المَرْأَةِ وَقالَ لِسِمْعَان: «هَلْ تَرَى هذِهِ الْمَرْأَة؟ أَنَا دَخَلْتُ بَيْتَكَ فَمَا سَكَبْتَ عَلى قَدَمَيَّ مَاء، أَمَّا هِيَ فَقَدْ بَلَّتْ قَدَمَيَّ بِالدُّمُوع، وَنشَّفَتْهُما بِشَعْرِها. أَنْتَ لَمْ تُقَبِّلْنِي، أَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ قَدَمَيَّ. أَنْتَ مَا دَهَنْتَ رَأْسِي بِزَيْت، أَمَّا هِيَ فَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ قَدَمَيَّ. لِذلِكَ أَقُولُ لَكَ: خَطايَاهَا الكَثِيرةُ مَغْفُورَةٌ لَهَا، لأَنَّها أَحَبَّتْ كَثِيرًا. أَمَّا الَّذي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ فَيُحِبُّ قَلِيلاً». ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَة: «مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطايَاكِ!». فَبَدَأَ المُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ في أَنْفُسِهِم: «مَنْ هُوَ هذَا الَّذي يَغْفِرُ الخَطايَا أَيْضًا؟». فَقالَ يَسُوعُ لِلْمَرْأَة: «إِيْمَانُكِ خَلَّصَكِ! إِذْهَبِي بِسَلام!». (لوقا 7، 36-50). ههنا امرأة جذبها المسيح بكاملها إليه.
هذا هو السؤال الهامّ، لنا وللعالم. إن لم نكن منجذبين، في الواقع، إليه أصبحنا قنبلة موقوتة، تحت رحمة أفكارنا، تحت رحمة ردود أفعالنا، تحت رحمة طريقة تفكيرنا، وطريقة مواجهتنا للأمور. باختصار، تحت رحمة العدم. والفرق واضح للعيان عندما نواجه شخصًا منغمسًا حتى الأعماق. هذا هو الإيمان. لدرجة أنّ يسوع يقول لها: «إيمانكِ خلّصك».

2. «مَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ، أَلَعَلَّهُ يَجِدُ الإِيمَانَ عَلَى الأَرْضِ؟»

ولكن بعد ذلك – وهذه هي الخطوة الثانية – ما إن يقع هذا الحدث، ما إن يدخل الله التاريخ كإنسان، لكي يتمّ التعرّف إليه، فإنّ السؤال الوحيد هو ذاك الذي طرحه علينا دون جوسّاني في بداية يوم العام الماضي، مستعيدًا سؤال يسوع: «مَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ، أَلَعَلَّهُ يَجِدُ الإِيمَانَ عَلَى الأَرْضِ؟» (لوقا 18، 8). ليست مشكلتنا ما إذا كان سيجدنا نتحدّث عنه، أو نقوم باجتماعاتنا أو ببعض البادرات، ولكن إذا كان سيظلّ هناك من بيننا من هو منجذب إليه، من سمح لنفسه بأن يدركه المسيح حتّى الأعماق كي لا ينتهي به المطاف إلى العدم. إنّ شرط حدوث هذا الأمر هو أن يبقى هذا الحضور الذي دخل التاريخ قائمًا، كما قلنا في الدرس الثاني من رياضة الأخويّة. في الواقع، لا يمكن أن تكون محاولة جعله (أي المسيح) موجودًا من قبلنا. فحضوره في التاريخ قد أكّده هو لنا: «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» (متّى 28، 20). مشكلتنا الحقيقية، إذن، هي ما إذا كنّا منفتحين على إدراكه في الزمن الحاضر، مثل الصديق الآتي من سلفادور دي باهيا، دون أن نسمح لأنفسنا بالفرار ممّا يحدث: منه هو، الذي يحدث. ليس من المفروغ منه أنّنا ندرك حضوره في ما يحدث وما نتحدّث به معًا.
وكما قال دون جوسّاني في يوم بداية العام الماضي، ليست المسألة مسألة عضويّة في تجمّع، إذ يمكننا المشاركة في تجمّع وعدم رؤيته. ليس التجمّع ما يحلّ مشكلة العدميّة، وفقدان المعنى. إنّه الإيمان فقط. لهذا اعتاد دون جوسّاني أن يقول لنا: «إنّ ما نسعى إليه ، ما نرغب في اختراقه، [...] ما نريد أن نعيشه هو الإيمان» ("حيّ أي حاضر!"، تراتشي، العدد 2018/9، ص 4)، لأنّ كلّ ما عداه غير قادر على جذبنا، على انتشالنا من العدميّة.
ولكن كيف يكون هذا الأمر ممكنًا اليوم؟ تمامًا كما كان في البداية: اللقاء بحضور ذي معنى، يتطلّب منّا الفقر، والاستعداد للانبهار. وهو هو (المسيح)، عندما يحدث مرّة أخرى، من يجعلنا فقراء، وهو ما يثير فينا الاستعداد للانبهار والانسياق إليه. لأنّنا «من دون تعجّب، نبقى صمًّا أمام الأسمى» (كما يقول هيشل، المذكور في الفصل العاشر من الحسّ الدينيّ، في المقطع الذي تم اختياره كعنوان للقاء ريميني 2020)، أي أنّنا نظل صمًّا أمام ما يحدث. لذلك يدعونا دون جوسّاني إلى التماهي مع الأصل. «كيف بدؤوا يؤمنون؟» وهو يصرّ على إعادة طرح هذا السؤال لكي نتماهى مع البداية، وهي قانون ونموذج ما حدث، كما تمّ توثيقه في الكتاب المقدس: إنّها الطريقة لكلّ لحظة من الطريق. هكذا يجيب جوسّاني: «إنّهم لم يؤمنوا لأنّ المسيح تكلّم بتلك الأشياء ؛ لم يؤمنوا لأنّ المسيح قام بتلك المعجزات، لم يؤمنوا لأنّ المسيح استشهد بالأنبياء، ولم يؤمنوا لأنّ المسيح أقام الموتى. كم من الناس، غالبيّتهم العظمى، سمعوه يتحدّث بتلك الطريقة وسمعوه يقول تلك الكلمات، ورأوه يقوم بتلك

المعجزات، ولم يتمّ فيهم الحدث. لقد كان الحدث أمرًا تشكّل فيه المعجزة أو الكلام قسمًا، جزءًا، عاملا، لكنّه كان شيئًا آخر، شيئًا أكثر من ذلك، شيئًا أكثر اختلافًا بكثير أعطى الكلام والمعجزة معناهما» (**"حيّ أي حاضر!"**، مرجع مذكور، ص 8).

ولكن لماذا آمنوا إذن؟ «لقد آمنوا بما ظهر عليه المسيح. [...] آمنوا بذلك الحضور، حضور غير أجرد أو بليد، حضور له وجه: حضور ذو وجه دقيق للغاية، حضور مفعم بالكلام، أي مفعم بالاقتراح». الآن، وكما نرى في كثير من الأحيان، «ليس أيّ حضور لديه اقتراح مفعم بالمعنى» (المرجع نفسه). نسمع العديد من المقترحات، ولكن أيّ منها يمكنه جذبنا؟
متى يتّضح أنّنا حددنا حضورًا ذا معنى؟ عندما نتصوّر أنّنا منجذبون، أنّنا مأخوذون: كالمرأة الخاطئة، كما في البداية. وهذا يحدث فقط أمام "حداثة جذريّة" يكرّرها جوسّاني «بكلمتي "مفاجئة" و "غير متوقّعة": إنّها شيء لم يكن هناك من قبل وهو الآن، هو موجود الآن؛ [...] لم يكن له أن يكون، وهو موجود الآن». ويكون الاقتراح مفعمًا بالمعنى «عندما يُشرك [...] المرء الذي يحمل المعنى»، عندما يتزامن مع وجود شخص مشارك بالكامل في المعنى الذي يحمله. وهو حضور «لا يمكن اختزاله بالماضي (المرجع نفسه، ص 8-10)، إنّه حضور فيه أمر أكبر، غير متوقّع، لا يمكن التنبّؤ به، لم يكن وهو موجود الآن. إذا لم يحدث هذا الآن، وإذا لم يبهرنا الآن، فهذا يعني أنّ المسيحيّة أصبحت الماضي بالنسبة لنا. ولكن وعلى العكس من ذلك "حيّ أي حاضر!"، إنّه موجود، لم يكن له أن يكون، وهو موجود الآن. والدلالة على ذلك، عندما نكون أمام حضور معيّن – حضور لم ينتج عني، حقيقيّ، موضوعي، خارج عني –، هو السؤال الذي يطرح نفسه في داخلي، فينا، «من عساه يكون؟» (متّى 8،27).

يصف هذا السؤال شيئًا ما زال يحدث اليوم، حتّى من خلالنا. أفكّر في الأشخاص الذين يصادفون حضورنا، أثناء تواجدنا معًا أو عندما نكون وحدنا، في أكثر الظروف تنوّعًا ـ وأشير إلى العديد من حكايات اللقاءات التي تحدث في إجازات الجمعيّة أو في العمل أو في الجامعة ـ فيتساءلون بسبب تنوّع الحياة التي يرونها، والجدّة الإنسانيّة التي تضفيها النعمة على أولئك الذين يقبلونها: «أنت، أنتم من تكونون؟ لماذا أنتم كذلك؟». بعد ألفي سنة، يتردّد صدى السؤال نفسه في العالم.
ولكن كيف يمكن أن يطرح السؤال نفسه؟ هذا السؤال هو ظاهرة، هو إشارة إلى شيء آخر، وهو ليس نحن. المسألة هنا: فهم ما يعنيه أن يسأل شخص نفسه هذا السؤال. في بعض الأحيان نبقى في شبه ذهول، من دون أن نفقه كثيرًا، من دون أن نسأل أنفسنا: «ماذا رأى هؤلاء الناس ليطرحوا هذا السؤال؟». لقد وجدوا أنفسهم أمام حضور يعبّر عن شيء «أكثر»، عن «أمر» تجاوز الصفات الطبيعيّة أو الالتزام أو حسن النيّة لمن هم قبالتهم، شيء لم يسبق له مثيل («إنسانيّة لم يسبق لها مثيل!»). وإلا فإنّ السؤال لن يكون. هذا السؤال يوثّق حضورًا أكبر منّا، في العمل فينا، في أشخاص مثلنا («شيء ما داخل شيء ما»، قال جوسّاني في العبارة التي ذكرناها في رياضتنا). ينبع السؤال من انبهار أمام «الإجابة التي تحدث» لعطش القلب الذي هو المسيح الحيّ، أي إنّه ينبع أمام استثنائيّة المسيح الذي يحدث، حتى لو لم يتمّ التعرّف عليه على هذا النحو، على ما هو عليه.
لو لم يكن المسيح حاضرًا – من خلال علامة إنسانيّة – فلن يكون هناك أيّ انبهار أو سؤال: فهذا الانبهار الذي يتفجّر في سؤال لا يمكن أن ينشأ إلا أمام حضور حيّ.
ولكن يجب علينا نحن أيضًا أن نكون حاضرين، بفقرنا، وبانفتاحنا واستعدادنا، بوصفنا متسوّلين ينتظرون حدوث حضور يكون على مستوى الرغبة الإنسانيّة. في الواقع يمكننا أن نكون أمام نفس ظاهرة التنوّع البشري وأن نبقى عميانًا: يحدث هذا الاستثناء ولا نراه، لا ننبهر به ولا ينشأ أيّ سؤال فينا.
لذلك، على الرغم من أننا منغمسون في هذا الحضور، بدلًا من النموّ في هذا الانبهار الذي يثير السؤال، فإنّنا نقول مرّات عديدة: «نحن نعرفه». عندما أسمع ذلك، أصاب بالإحباط: ولا ذرّة من الانبهار! فكيف للأسئلة أن تبرز! لهذا السبب، إذا عدنا إلى المنزل مع هذا السؤال وحده، «من عساه يكون؟»، فإنّ مجيئكم إلى هنا اليوم

سيكون مجديًا.

يمكننا التحقّق من ذلك كلّ يوم: كم مرّة شعرنا بالانبهار والانجذاب إلى حضور ما وكم مرّة "روينا ذلك" مكرّرين كلمات أو واصفين الحقائق – مهما كانت ساطعة – ولكن دون أن ننبهر بذلك «المزيد» الذي يحدث أمامنا ودون أن يبرز السؤال؟ سيقودنا ذلك إلى الشكوكيّة، لأنّه لم يعد كافيًا معرفة الأشياء الصحيحة – التحدّي الذي حدّده Galimberti لا يسمح لنا بذلك – ولا حتّى أن نقول الكلمة الصحيحة. و «متى جاء»، لن يجد من بيننا شخصًا ما زال منبهرًا بحضوره، ويعترف به على أنه حاضر حقًا في جسد الإنسانيّة المتغيّرة، حتى لو واصلنا الانتماء إلى الجمعيّة. لأنّ ما هو على المحكّ ليس التجمّع، بل هو الإيمان. والإيمان هو هذا فقط: الاعتراف بحضوره الحاضر، الذي لا يزال يحدث الآن كما قبل ألفي عام.
المسيح لا ينحصر في الماضي، وحدثُه – هذا الحدث الذي اكتسح كلّ واحد منّا، وإلا لما كنّا ههنا – لا يُحفظ في متحف (أخبرنا البابا فرنسيس بذلك في ساحة القدّيس بطرس، هل تذكرون؟) إنّه لا ينتمي إلى ذكريات زمن ماضٍ: إنّه هنا الآن، وهو الآن في الجسد! الماضي لا يكفي لجعل الإيمان مثيرًا للاهتمام بالنسبة لكلّ واحد منّا اليوم، كما لم يكن كافيًا في البداية. كان يجب أن يحدث شيءٌ في الوقت الحاضر.

«جاءَ يَسُوعُ إِلى كَفَرْنَاحُوم، وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ يَوْمَ السَّبْتِ إِلى المَجْمَعِ وأَخَذَ يُعَلِّم [اعتادوا على الذهاب إلى المجمع لسماع شخص يكرز، ولكن هذه المرّة تلقوا أوّل ضربة لهم] فبُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ، [كثيرون كانوا يعلّمون، وكثيرون كانوا يقدّمون اقتراحات ويعلّقون على الكتاب المقدّس، ولكن] لأَنَّهُ كانَ يُعَلِّمُهُم كَمَنْ لَهُ سُلْطَان، لا مِثْلَ الكَتَبَة. وكَانَ في مَجْمَعِهِم رَجُلٌ فِيهِ رُوحٌ نَجِس، فَصرَخ قائِلاً: "مَا لَنَا وَلَكَ، يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيّ؟ هَلْ أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا؟ [حتى الشياطين كانت تعرفه] أَنا أَعْرِفُ مَنْ أَنْت: أَنْتَ قُدُّوسُ الله!". فزَجَرَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: "اخْرَسْ! وٱخْرُجْ مِنَ الرَّجُل!". فهَزَّهُ الرُّوحُ النَّجِسُ بِعُنْفٍ، وَصرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ. فتَعَجَّبُوا جَمِيعُهُم [من كلمات وإيماءات يسوع] وَأَخَذُوا يَتَسَاءَلُونَ فيمَا بَيْنَهُم قَائِلين: "ما هذَا؟ إِنَّهُ تَعْلِيمٌ جَدِيدٌ [لا يمكن اختزاله بالماضي، بما سبق وعرفناه] يُعْطَى بِسُلْطَان [من هنا وُلد شعبٌ جديد]! وهُوَ يَأْمُرُ الأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ نَفْسَهَا فَتُطيعُهُ!". وفي الحَالِ ذَاعَ صِيتُهُ في كُلِّ مَكَان، في كُلِّ أَنْحَاءِ الجَلِيل (مرقس 1، 21-28). التعليقات على الكتابات المقدّسة كانوا يسمعونها في الكثير من الأحيان، من غير أن ينبهروا. كان الفرق هو وجودهم أمام سلطة، بسبب حداثة ما تقوله، أثارت السؤال: «ما عساه يكون هذا؟».
يشهد دون جوسّاني نفسه على حسم هذه السلطة. فلنستمع إليه!

من محادثة للويجي جوسّاني مع مجموعة
من الأعضاء في *Memores Domini* (ميلانو 29 أيلول/سبتمبر 1991)

نسخ للتسجيل الذي تمّ عرضه في لقاء بداية السنة بتاريخ 28 أيلول/سبتمبر 2019 والمحفوظ في الأرشيف التاريخيّ لجمعيّة Memores Domini الكنسيّة. راجع "الفرح والسعادة والجرأة. لا أحد يلد، إن لم يولد"، تراتشي، عدد 1997/6.

لويجي جوسّاني

ما هو العامل الأكثر أهمّيّة في واقع الشعب كشعب، في واقع الرفقة كرفقة، كما تأمّلتم هذا الصباح، في واقع الشعب كشعب دُعينا إليه، ورفقة نشارك فيها، واقع مكان النبوة، مكان الصرخة أنّ كلّ شيء هو الله، والمكان الحقيقيّ للحسّ الدينيّ؟

إنّ أهمّ عامل للشعب كشعب، والرفقة كرفقة، هو ما نسميّه "السلطة".
هناك حاجة ماسّة لأن ندمّر، حتى آخر حجر، صورة السلطة أو المرشد "الروبوتي"، مثل فرد أو مثل أفراد محبوسين داخل برج، يديرون منه، يطلقون منه الإشارات، ويوجّهون منه سير الأمور.
السلطة (autorità)، القيادة، هي عكس التسلّط والهيمنة (potere) تمامًا، وليس فيها حتّى فاصلة ولا نقطة من كلمة هيمنة. ولهذا يغيب تمامًا، أمام مفهوم السلطة لدى شعب الله، على أيّ مستوى، يغيب تمامًا كلّ انعكاس للخوف: لأنّ الخوف يتوافق مع الهيمنة، وعلى المرء أن يستهتر بالهيمنة من أجل التخلّص من الخوف.
ما هي هذه السلطة؟ سأقدّم تعريفًا بها. [السلطة] هي المكان – لأنّك أنت أيضًا مكان، أليس كذلك؟، الشخص مكان –، إنّه المكان حيث النضال من أجل التأكيد، صراع النبوّة والتحقّق من النبوة، المكان حيث النضال والتحقّق من الإجابة بأنّ اقتراحنا، بأنّ اقتراح المسيح هو من أجل إدراك القلب... إنّ السلطة هي المكان حيث النضال للتأكيد والتحقق لإثبات صحّة اقتراح المسيح، أي إنّه جواب على الإدراك، على احتياجات القلب (على الحسّ الدينيّ، [الذي] تقدّمه احتياجات القلب، الذي يتلقّى الجواب الماثل أمامه)، وهي أكثر وضوحًا وبساطة – ولهذا لا تثير الخوف – إنّها أكثر سلميّة. السلطة هي المكان حيث التحقّق بين الإدراك، بين احتياجات القلب والإجابة التي قدّمتها رسالة المسيح هو أكثر وضوحًا وبساطة، وبالتالي أكثر سلميّة.
يقول بازوليني، في مقطع ذكرته عدّة مرّات في الآونة الأخيرة، إنّ الناس بدون تربية، وإنّ الشباب بدون تربية: وإذا قام أحدهم بتربيتهم، فإنّه يربّيهم بتواجده، وليس بخطاباته. السلطة هي المكان حيث العلاقة بين احتياجات القلب والإجابة التي قدّمها المسيح أكثر وضوحًا، أكثر بساطة وأكثر سلميّة. [وهذا] يشير إلى أنّ السلطة هي تواجد وليست مصدرًا للخطاب. الكلام أيضًا هو جزء من اتساق التواجد، ولكن كانعكاس فقط. باختصار، السلطة هي شخص يرى المرء من خلاله أنّ ما يقوله المسيح يتوافق مع القلب. هذا ما يرشد الشعب.
الفكرة الثانية، المسألة ليست في أن نتبع... المسألة هي أن نتبع، ولكن لا تتمّ الإشارة إليها بشكل كامل وجيّد أو بشكل أفضل من كلمة "اتّباع": سأشير إليها بكلمة "بنوّة". نحن بنون للسلطة. الابن يأخذ الأرومة من والده، يتبنّاها، وهو مكوّن من الأرومة التي تأتي من والده، ويتكوّن من والده. لهذا السبب كلّ شيء مأخوذ. السلطة تأخذ منّي كلّ شيء، إنّها ليست كلمة تخيفني أو تجعلني أخشى أو "أتابعها". تأخذني. لذلك، فإنّ كلمة "سلطة"... قد تكون كلمة "سلطة" مرادفة لكلمة "أبوّة"، وبالتالي توليد، ولادة، نقل للجينات، نقل لأرومة الحياة. أرومة الحياة هي أنا ذاتي التي تدخل في علاقة فتصبح مختلفة.

كلمة "سلطة"، التي تتوافق مع كلمة "أبوّة"، تليها كلمة "حرّيّة"، إنّها تلد الحرّيّة. كوننا بنين هي الحرّيّة. وفي الواقع يذكر الإنجيل في عدّة مقاطع حيث يقول يسوع لبطرس: "ماذا تقول يا سمعان، هل ينبغي على ابن الملك أن يؤدّي الخراج للملك؟ لا، فالخراج يؤدّيه العبيد، لأنّ ما يملكه الأب يعود للابن".
لذلك فإنّ السلطة حقيقيّة أو مختبَرة حقًّا بصفتها هذه عندما تفجّر حرّيّتي، وتفجّر ضميري الشخصيّ ومسؤوليّتي الشخصية، ضميري ومسؤوليّتي الشخصيّة.
لهذا السبب، كما جعلوني ألاحظ عن حقّ، عندما التفت يسوع وقال: "من تقولون إنّي أنا؟" وأجاب بطرس: "أنت المسيح، ابن الله الحيّ"، نقل سؤال المسيح بطرس من منطق الصديق – قبلها كان صديقًا، وأحد معارفه – إلى مسؤوليّة الوعي الشخصيّ، إلى هيكليّة من المسؤوليّة الشخصيّة. حيث قال بمسؤوليّة: "أنت المسيح ابن الله".
في تلك اللحظة أصبحت الصداقة التي كانت تربطه بالمسيح، أصبحت مضاءة فجأةً بوعي شخصيّ وبمسؤوليّة، بوعي ومسؤوليّة يعبّر عنها.
لا توجد علاقة مع مكانٍ للسلطة، مع من يمثّل السلطة، إن لم يشعر الشخص بأنّ حرّيّته تتفجّر في وعي شخصيّ وفي مسؤوليّة شخصيّة.
ثالثًا: إذا كانت السلطة هي مصدر حرّيّة بهذا الشكل، فإنّها تصبح مكانًا للمؤاساة (luogo di conforto) وتجعل الجماعة بأكملها، كلّ الشعب، مكانًا للمؤاساة. بأيّ معنى؟ مكانًا للمؤاساة لأنّني إذا رأيت مكانًا غلب فيه المسيح، انتصر، أقنع وغيّر، وأوضح مدى توافقه مع احتياجات القلب، إذا أراني أحدٌ ذلك، إذا وثّقه لي، إذا رأيتُ أحدًا وأدركتُ أنّ هذا الأمر يحدث فيه، فإنّني أبدأ أدرك أنّه يحدث أيضًا في الجماعة؛ وعندها – مهما كنتُ، وفي أيّ

حالة ذهنيّة كنت، سواء قمتُ بخطوات قليلة أو عديدة – أشعر بالمؤاساة والراحة: "وصاياك مصدر فرح"، ومؤاساة، لأنّ المسيح ينتصر.
السلطة هي المكان الذي يتّضح فيه أنّ المسيح ينتصر. ماذا يعني أنّ المسيح ينتصر؟ يعني أنّ المسيح يُبرهن، حتى في المظهر، حتّى على شاطئ المظهر، يبرهن أنّه يتوافق، أنّه يتوافق مع احتياجات القلب بطريقة مقنعة، بطريقة نبويّة. هذا ما سوف يحدث لي أيضًا. يبدو مستحيلاً. حتى بالنسبة لمن هو السلطة كان مستحيلا وأصبح الآن ممكنًا، وحقيقيّا. المسيح ينتصر.
السلطة هي إذن مكان للأبوّة، تكون فيها الحياة الجديدة – أي تلك التي يستجيب فيها المسيح للقلب، [لما] صُنع من أجله الإنسان، حيث يستجيب المسيح للقلب – أكثر وضوحًا، أكثر نقاءً ووضوحًا. هذه هي السلطة الحقيقيّة. لهذا السبب، يمكن أن تكون السلطة العجوز التي تضع قطعة النقود في صندوق الهيكل، أكثر من رئيس الفرّيسيّين.
تظهر هذه السلطة الأبويّة، المولِّدة، في خبرة المزيد من الحرّيّة والوعي الشخصيّ والمسؤوليّة الشخصيّة، بحيث إذا ذهب الجميع، وإذا فارقك الجميع، إذا خذلك الجميع – كما يقول مقطع جميل ذكرته في اليوم الأخير من العام، في اليوم الأوّل من العام – إذا خذلك الجميع، أقول لك: "نعم!" وعيٌ ومسؤوليّة شخصيّة. وبالتالي فإنّ السلطة هي مكان المؤاساة، حيث نرى أنّ المسيح ينتصر. وهكذا تقوم السلطة برسالتها الحقيقيّة، لأنها تمجّد الشعب، وتجعلنا نفهم أنّ كلّ الشعب وكلّ الرفقة هي المكان الذي ينتصر فيه المسيح.

كارّون
السلطة هي أهمّ عامل في واقع الشعب، فبدون السلطة لا ينشأ الشعب. لذلك، فإنّ كلّ واحد منّا مدعوّ للاعتراف بها أينما كان، لأنّه – كما سمعنا للتوّ – «يمكن أن تكون السلطة العجوز التي تضع قطعة النقود في صندوق الهيكل، أكثر من رئيس الفرّيسيّين». وكيف نتبيّنها؟ السلطة «هي شخص يرى المرء من خلاله أنّ ما يقوله المسيح يتوافق مع القلب» ولهذا السبب فإنّها مؤاساة لنا جميعًا، مهما كانت نقطة الطريق التي نتواجد عليها.

خلال إحدى مدارس الجماعة، قالت إحدى الصديقات: «لأسباب شخصيّة، اخترت في العام الماضي مغادرة الحركة وإلغاء اشتراكي في الأخويّة. سوف تتساءلون، "إذن ماذا تفعلين ههنا؟" في شهر أيّار/مايو الماضي، حدث أمر في حياتي، قد يبدو تافهًا للغاية: لقد وقع لي حادث سيّارة وأنا ذاهبة إلى المقهى مع زملائي. ونظرًا لأنّ التصادم كان عنيفًا للغاية، فقد نقلوني إلى المستشفى، حيث عشت انتظارًا رائعًا، حيث وقع هناك حدث جعلني ههنا اليوم. لقد حدّدتُ النقاط التي أريد التأكيد عليها من كتيّب الرياضة: "ولكن من أين يأتيني كلّ هذا؟ نحتاج إلى أن نفهم من أين يأتينا، وإلا فلمَ يتوجّب أن نعود إلى هنا؟ لقد أتى إلينا من المسيح الحيّ". ثم الجزء حول "المكان". في حوالي الساعة الثانية صباحًا، عادني طبيب. كنت خائفة جدًا، خشية أن يكون حدث لي أمر خطير. الشيء الذي لن أنساه أبدًا هو نظرة ذلك الطبيب، الذي نظر إليّ بإنسانيّة لدرجة أنّني تساءلت في نفسي: "لماذا تنظر إليّ هكذا؟" وهناك انفتح أمامي رابط: "أنا، هذه الطريقة لإدراك أنّه ليس الشخص، أنّ هناك شيئًا أمامي يوجّهني إلى شيء آخر، أعيشه". إذا كنت قد دخلت في الفرز بسبب الاصطدام الخلفي، فقد حصلت على "ضربة" جرّاء هذه النظرة. في الأيّام التالية، كانت في بالي هذه النظرة وهذا السؤال. وفي مرحلة ما، بدأت الاتّصال بأمانة الحركة لاستئناف التواصل، حيث سبق لي أن رأيت هذا النوع من النظرة وأدركته، وقد تعلّمت كيفيّة التعرّف إلى تلك النظرة في تعليم الحركة فقط. ما حدث لي هو حقيقة موضوعيّة، شيء حقيقيّ. بعد هذا التصادم قال لي الناس: "لديكِ نظرة مختلفة، أنتِ لم تعودي أنت. ماذا حدث لكِ؟ لم أتمكّن من شرح ذلك وهكذا بدأت البحث عن الحركة مرّة أخرى. لماذا؟ لأنّني لا أريد أن أفقد ما قابلت! كنت أرغب في الحفاظ على هذا الاعتراف والمكان الوحيد الذي يمكن أن يساعدني هو مدرسة الجماعة، لأنّني هنا تعلّمت أن أتعرّف عليه، وأن أعيشه».

هنا شخص انتصر فيه المسيح. سمعنا دون جوسّاني يقول «السلطة تأخذ منّي كلّ شيء»، إنّها شموليّة: أنا مندهش من أنّ المسيح ينتصر في واحد – أيّا كان – من أنّني لا أستطيع أن أخفق في أن أعطي كلّ شيء، لا يمكنني تجنّب أن يؤخذ منّي كلّ شيء. السلطة تأخذ منّي كلّ شيء. كما يكتب أحدكم: «حياتي بداية مستمرّة من الاعتراف بهذا الحضور، بحضور معيّن. من هذا فقط يمكن أن يولد الحماس والفرح وسعادة الحياة. حضور قادر على الحصول منّي على ما لا يحصل عليه أيّ شخص آخر. وحده المسيح قادر على الحصول منّي على التصاق ومودّة ومحبّة لا تضاهي أيّ شيء آخر». هل تفهمون لماذا هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع التغلّب على العدميّة؟

لكنّ انتزاع كلّ شيء منّي، ويا للمفارقة، بدلًا من أن يجعلي عبدًا، يجعلني حرًّا أخيرًا. السلطة هي «مصدر الحرّيّة»، «إنّها تفجّر حرّيّتي».
«"هذا الرجل يتحدّث فعلا بسلطة». ولكن من هي السلطة؟ في هذا الصدد، هناك عبارة للشاعر دانتي، في الأغنية الثالثة من الفردوس، تقول ببلاغة ”Volsesi al segno di maggior disìo“– والتفتَ إلى العلامة، إلى ذلك الوجه الذي كان أكمل من الرغبة، وبالتالي، أثار فيه المزيد من الرغبة –. السلطة هي وجه جديد، مليء بـ "رغبة أكبر"، يثير فينا "رغبة أكبر". ويواصل دون جوسّاني: «وحده اللقاء بالسلطة يجعل القناعة الأصيلة تتسرّب من بابنا، وتتجاوز عتبة شخصيّتنا: في النظر إلى ذلك الوجه الإنسانيّ الجديد، يرى المرء تطابقًا مع ما ينتظره القلب، وبالتالي يكتشف القناعة. بدون سلطة لا توجد قناعة. سيكون هناك "رضا" أو، إذا أردت، "متعة"، ولكن ليس الرضا الإنسانيّ عن الحرّيّة والفكر والقلب والعينين والقول» (الحدث المسيحيّ، دار نشر بور، ميلانو 2003، ص 16-17).
فقط إذا كان للمسيح سيطرة علينا، سنكون قادرين على المخاطرة مثل الخاطئة، التي شهدت حرّيّة أن تكون هي نفسها أمام أعين الجميع، دون أن تدع نفسها تحدّدها ثرثرة من حولها وآرائهم وردود أفعالهم. لا خوف يعيقها، ولا تسوية مع عقليّة الجميع. ليس لديها ما تخسره. فالجميع يعتبرها خاطئة، وليس لديها ما تخسره. لذلك يمكنها أن تمتلك الجرأة وتسمح للمسيح بأن يمتلكها بالكامل. ليس في غرفتها المغلقة بل أمام الجميع. مثيرة بذلك ردّة فعل الجميع. بمن فيهم يسوع، الذي لا يشعر على أيّ حال بالارتباك، فهو يعرف من تكون. ومن خلال طريقته في النظر إليها، في ردة فعله، يُظهر تنوّعه الفريد والمثير.
هذه الحرّيّة حاسمة اليوم في التربية، والمجازفة في الحبّ من دون الامتلاك، بهذا الانفصال الذي يجعل من الممكن نقل حضوره، دون وضع إنسانيّتنا في الثلاجة، حتى لا يتم اختزال المسيحيّة إلى قيم «نقيّة للغاية، باهتة للغاية» – كما قال لوباك – من أجل جذب وإثارة الاهتمام في مركز الأنا (مأساة الإنسانويّة الإلحاديّة، المجلّد الثاني من المجموعة الكاملة، ياكا بوك، ميلانو 1992، ص 59).
هذا هو السبب الذي يريد المرء من أجله أن يصبح ابنًا، وأن يشارك في «أرومة الحياة» التي اكتسحته، والتي يرى فيها المسيح ينتصر. «أرومة الحياة هي أنا ذاتي التي تدخل في علاقة فتصبح مختلفة». الابن حرّ في إشعاع التنوّع الذي يحمله، ويتلّقاه من آخر يولّده باستمرار. كما يقول القدّيس بولس: «نَحنُ لا نُبَشِّرُ بِأَنفُسِنا، بَلْ بِالمَسِيحِ يَسُوعَ رَبًّا». ولكن كيف يبشّر به؟ «أمّا نَحنُ فَنَقُولُ إنَّنا خُدّامٌ لَكُمْ مِنْ أجلِ يَسُوعَ. لِأنَّ اللهَ الَّذِي قالَ: "سَيُشرِقُ نُورٌ مِنَ الظُّلمَةِ". هُوَ الَّذِي أشرَقَ فِي قُلُوبِنا بِنُورِ مَعرِفَةِ مَجدِ اللهِ الظّاهِرِ فِي وَجهِ يَسُوعَ المَسِيحِ. لَكِنَّنا نَحتَفِظُ بِهَذا الكَنزِ فِي أوانٍ مِنْ فَخّارٍ، لِكَي يَتَّضِحَ أنَّ تِلكَ القُوَّةَ غَيرَ العادِيَّةِ لَيسَتْ مِنّا، بَلْ مِنَ اللهِ» (2 كورنثوس 4، 5-7).

3. لا أحد يلد إن لم يولد

السلطة هي أبوّة حاضرة، كما سمعنا للتوّ من دون جوسّاني.
هذا أمر حاسم بشكل خاصّ لكلّ واحد منّا: «لا يمكن لأحد أن يكون أبًا ووالدًا إن ليس له أب». لا [انتبهوا] إن

«ما كان لديه» [أب]، بل إن «ليس له» [في الحاضر] أب. لأنّه إن ليس لديه أب، فهذا يعني أنّه ليس حدثًا، [...] إنّه ليس توليدًا. التوليد فعل حاضر» (جوسّاني،"الفرح والسعادة والجرأة. لا أحد يلد، إن لم يولد"، تراتشي، عدد 1997/6، الصفحتان II وIV). وهذا ما نراه عن بُعد. من لديه أب؟ من وُلد الآن. كما عندما نذهب إلى منزل أسرة ما، وهناك نرى من هو الطفل، من الذي وُلد فيولد تلك اللحظة ومن لا؛ من لم يولد يدافع عن نفسه، فهو مليء بالخوف من الأب.
«إنّ البنية أمام الآخر هي بنية دائمة، لكنّ تنفيذ الأبوّة كمحتوى للبنية الدائمة هو شيء موجود. أن يكون لنا أب هو بنية دائمة لأنّه ينتمي إلى تاريخه. لو لم أذهب في عام 1954 إلى ثانوية Berchet ودخلت مدرسة ثانويّة أخرى، لكانت مسألة أخرى تمامًا. بنية دائمة، ولكنّ التوليد – وهو الجزء المثير للاهتمام من الأبوّة – هو حضور، هو شيء حاضر. لذلك لا يمكن للمرء أن يكون مولّدًا، إن لم يكن له أب، إن لم يكن بسبب أنّ له أبًا، إن لم يكن لأنّه مولود»، لأنّ «من ليس له أب "معاق عاطفيًا". والمعاق عاطفيًا كان لديه أب ولم يعد في الوقت الحاضر. الأبوّة الشخصيّة، الأبوّة تولّد الأنا. لا تولّد الأنا [...] بل فعل الأنا» (نفس المرجع، صIV).
لذلك يخلص دون جوسّاني إلى القول: «لا أحد يلد، إن لم يولد. ليس "إن لم يكن مولودًا"، بل "إن لم يولد". مفهوم الأبوّة هذا هو المفهوم الذي تحاربه ثقافة التنوير بأكملها قبل أيّ شيء آخر» (المرجع نفسه)، وأيضًا بيننا، نحن الذين غالبًا ما ننتمي إلى تلك العقليّة.

وبالتالي، لكي نكون قادرين على التوليد اليوم – الآباء للأطفال، والمدرّسين للطلاب –، لنكون قادرين على البدء من جديد كما كان في البداية، لنكون قادرين على تقديم مساهمة في هذه اللحظة الدراميّة من التاريخ، لا تكفي ذاكرة الماضي، بل نحن بحاجة إلى أبوّة حاضرة. لكي نكون قادرين على التوليد اليوم، نحن بحاجة إلى حضور حاضر، غير قابل للاختزال للماضي، يعبّر عن «المزيد»، عن شيء غير متوقّع، لا يمكن التنبؤ به، لم يكن وهو موجود الآن.
قال البابا فرنسيس مؤخّرًا للمبشّرين التابعين للمعهد الحبريّ للإرساليّات: «التبشير هو شهادة ليسوع المسيح الذي مات وقام. وهو الذي يجذب. هذا هو السبب في أنّ الكنيسة تنمو عن طريق الجاذبيّة وليس عن طريق الاقتناص، كما قال بنديكتوس السادس عشر» (الخطاب إلى المجمع العامّ للـPIME، 20 مايو 2019).
ولكن أين يحدث هذا الأمر؟ أين يجذب (المسيح)؟ أين يجتذب إليه؟ إنّه يجذب ويجتذب إليه حيث يلتقي أحدهم بحضور ملموس كحضورك، فيسألك: «لماذا أنت هكذا؟»، «من عساه يكون؟»، يسأل وهو يراك الآن، في الوقت الحاضر.
أنت، من أجل ما أنت عليه، بحياتك، تبشّر بيسوع المسيح، وتُظهر يسوع، كما يقول بازوليني (يذكره دون جوسّاني) بعبارات عامّة، في إشارة إلى الظاهرة التعليمية: «إذا ما [...]علّمك شخص ما، فإنّه يكون قد قام بذلك بفضل حضوره، وليس بكلامه» (رسائل لوثريّة، دار نشر إيناودي، تورينو 1976، ص 44). هذه هي الرسالة: أن يدعني المسيح أراه من خلال شخصي، وطريقتي في عيش الواقع، أي إنّني شاهد على توليده هذا، على جعلي هكذا، على جعلي بهذه الطريقة، على توليدي بهذه الطريقة، بهذه الطريقة في رؤية الأشياء ومواجهتها: ابن، من أرومة والده.
أخبرني طالب جامعيّ أنّ عاملا شابّا وصل منذ بعض الوقت إلى الشقّة التي يعيش فيها. وهو لا يتردّد إلى الكنيسة، وبسبب عمله يعيش حياة مختلفة تمامًا عن حياته، حيث ينام متأخّرًا جدًا، ولا يتواجد أبدًا على العشاء. باختصار، بدا له أنّه كان "مصفوفا" في الشقّة، لا أكثر ولا أقلّ. إلى أن وصل ذات مساء أحد الأصدقاء لتناول العشاء وأخذ يقول، مندهشًا بما كان يراه: «يا لها من شقة جميلة!» ويلاحظ أشياء لم يكن قد لاحظها هو. وفي لحظة ما، خرج العامل الشابّ من غرفته – لم يكن أحد يعلم أنّه في المنزل – وجلس إلى المائدة وبدأ الصديق التحدّث إليه. لم يُعِر الجامعيّ الأمر اهتمامًا، ولكن في صباح اليوم التالي، اتّصل به صديقه ليقول له: «يا صاح، هذا الفتى يبحث بشدّة، من الواضح أنّه قد رأى شيئًا ما فيكم". فأجاب: «حسنًا، لا أعتقد ذلك ...». وفي نفس صباح اليوم قرّر الجامعيّ الذهاب للسباحة في النهر فقال للعامل الشابّ من غير قناعة: «أتريد الذهاب معي؟» فأجابه: «نعم، نعم، سأذهب». وعند وصولهما إلى النهر، بدأ العامل الشابّ يروي ماذا كان يعني بالنسبة له

الوصول إلى تلك الشقة: «لقد أدركت على الفور أنّ هناك شيئًا مختلفًا بينكم». لم يخبره أحد أنّ الكثيرين منهم هم من الحركة. وفي الغرفة التي تسلّمها من أحد الطلاب، وجد كتيّب "الصوت المثاليّ الفريد" (دار نشر سان باولو، 2018): «لقد قرأته بكامله – أضاف – ثم أهديته لأخي الذي يبدأ السنة الخامسة، لأنّنا بحاجة إلى مثل هذا الأمر». ثم قال له: «أودّ مقابلتكم»؛ وبعدها: «هل تعلمّني أن أصلّي؟». أخبرني الطالب الجامعيّ في الختام: "في الليلة السابقة كنت قد فكّرت في الطلب من الموجودين في المنزل أن يتلوا صلاة في نهاية المساء، ولكن بعد ذلك فكّرت: إنّه هنا معنا، فلنصرف النظر عن هذا الأمر، لن يهمّه أن يصلّي؟ لم أرَ أيّ شيء ممّا رآه ضيفي على الفور؛ الحمد لله، لأنّ انفتاح نظره قد أصابني أنا أيضًا.

يا للفقر المطلوب لنترك أنفسنا يولّدها آخر الواصلين! في الواقع، ما هي المخاطر التي كثيرًا ما يدهمنا، كما في هذه الحالة؟ الوضوح. ممَّ نرى ذلك؟ من حقيقة أنّه لم يعد هناك انبهار فينا. فنحن نرى أشياء مذهلة، هي ماثلة أمام أعيننا، تحت بصرنا، ولكنّنا لا ندرك ذلك، لا ندرك حقًّا ما يحدث، فيما يحدث. لا يمكننا أن نرى أين ينتصر المسيح، أمام أعيننا.
الآن أيضًا يحدث ما حدث في البداية، كما يروي الإنجيل: «وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ كَفْرَنَاحُومَ، جَاءَ إِلَيْهِ قَائِدُ مِئَةٍ يَطْلُبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: "يَا سَيِّدُ، غُلاَمِي مَطْرُوحٌ فِي الْبَيْتِ مَفْلُوجًا مُتَعَذِّبًا جِدًّا". فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: "أَنَا آتِي وَأَشْفِيهِ". فَأَجَابَ قَائِدُ الْمِئَةِ وَقَالَ: "يَا سَيِّدُ، لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي، لكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلاَمِي. لأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ تَحْتَ سُلْطَانٍ. لِي جُنْدٌ تَحْتَ يَدِي. أَقُولُ لِهذَا: اذْهَبْ! فَيَذْهَبُ، وَلآخَرَ: ائْتِ! فَيَأْتِي، وَلِعَبْدِيَ: افْعَلْ هذَا! فَيَفْعَلُ". فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ تَعَجَّبَ، وَقَالَ لِلَّذِينَ يَتْبَعُونَ: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلاَ فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَانًا بِمِقْدَارِ هذَا! لقد رآه في وثنيّ! ولم يجد في إسرائيل أحدًا بمقدار ذلك الإيمان. لذلك يضيف يسوع قائلا: «وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِب [الأخيرون، الوثنيّون] وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ [أي هؤلاء الذين تمّت دعوتهم أوّلًا] فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ» (متّى 8، 5-12). ليس لأنّه يطردهم، كعقاب، بل لأنّهم يستبعدون أنفسهم بسبب عدم اعترافهم به. يمكن للأخيرين أن يدركوا، مثل قائد المئة، ما لا يعترف به الأبناء، أي الذين تتوجّه إليهم بشارة يسوع قبل غيرهم.
هذه هي المأساة. نحن، «أبناء الملكوت»، الذين أكلنا وشربنا معه إذ شاركنا في حياة الجماعة المسيحيّة، قد لا نفهم ما يحدث الآن، في حين أنّ الأخيرين يفهمونه. لذلك، فإنّنا نضيّع الحداثة التي يُدخلها المسيح في التاريخ – ليس في الماضي، بل الآن – تلك الحداثة التي يعترف بها الوافدون الجدد، بينما نلتهي نحن بمناقشة "أمورنا"، وبالتالي نستسلم لعقليّة الجميع، نستسلم للقواعد. في غياب الانبهار، نستسلم للقواعد، إلى الاستراتيجيّات، كما يقول البابا يوحنا بولس الأوّل، في تلك العبارة التي ذكرها دون جوسّاني مرّات عديدة. «إنّ المأساة الحقيقيّة للكنيسة التي يحلو لها أن تتّصف بالحديثة [أي للمسيحيّين الذين يستسلمون لعقليّة الجميع] هي محاولة تصحيح الانبهار لحدث المسيح بالقواعد» (يوحنّا بولس الأوّل، هوميليتاس، العدد 2001/3، ص 10). يعلّق دون جوسّاني قائلا: «عندما نتجنّب الانبهار [عندما لا نتفاجأ بأيّ شيء ولا ندرك ما يحدث أثناء حدوثه، أي حدث المسيح الذي يُضيء ويُبرز وجهك] [...]، لا يمكننا تجنّب تعريض حياتنا، المجزّأة، لعبوديّة القواعد» (على الدرب. 1992-1998، المرجع المذكور، ص 107-108).
على العكس من ذلك، «الحدث المسيحيّ هو لقاء مع واقع إنسانيّ ينقل الدليل على تطابق الإلهيّ – الذي تعطّف ودخل حياتنا – مع ما نحن عليه. وهذا اللقاء يفتح عينيّ على نفسي، ويثير إماطة للثام عنّي، ويُظهر نفسه مطابقًا لما أنا عليه: يجعلني أدرك ما أنا، وما أريد، لأنّه يجعلني أفهم أنّ ما يجلبه هو فقط ما أريده [...]. كما لو كان يقول: "انظر [انظر!] ما أنت عليه، ثم أخبرني إذا كنتُ لا أتوافق معك: لأنّك لا تعرف نفسك تستطيع أن تعتقد أنّني لا أتوافق معك، وتفضّل شيئًا آخر كمعنى لنفسك" [أي يمكنك أن تفقدني]» (المرجع نفسه، ص 111-112). يحذّرنا جوسّاني أخيرًا من الخطر الذي يخيّم علينا دائمًا. أيّ خطر؟ خطر الاعتقاد أنّ بإمكاننا أن نتطوّر بنفسنا بمعزل عن الأب: «مع مرور الوقت، يكمن خطر أن نتطوّر كما ينمو الطفل تجاه الأب، حيث يشقّ طريقه بغضّ النظر عن الأب» وبالتالي «لا يعود الأطفال أبناء الأب؛ إنّهم تلاميذ للحظات [انظروا إلى هذا الوصف الدقيق: مرّات عديدة نحن "تلاميذ للحظات"] غير قادرين على التصرّف؛ وعندما يتمكّنون من التصرّف، فإنّهم

يتصرّفون من تلقاء أنفسهم [عندما نستطيع أن نتصرّف، نتصرّف من تلقاء أنفسنا، ونستغني بكلّ سرور عن الأب]. [...] بينما إذا كان أحدهم ابنًا، فإنّه ينمو ويأتي بكلّ شيء جديد لما كان يقوله الأب» (تدوينات من مجلس رئاسة شراكة وتحرّر، ميلانو، 24 تمّوز/يوليو 1992، المحفوظة لدى الأمانة العامّة للحركة في ميلانو).

هذا هو التحدّي الماثل أمامنا في بداية هذا العام: أن نعيش التوق لاعتراض ذلك الحضور الذي يولّدنا، وتلك السلطات التي تتغلّب على العدميّة، وهو حضور استثنائيّ لدرجة أن نسأل: «من عساه يكون؟». قال البابا فرنسيس مؤخّرًا: «إنّ الله يحبّنا، وقد أصبح أقرب ممّا كنّا نتخيّله، لقد أخذ جسدنا لينقذنا. هذه البشارة هي قلب الإيمان، ويجب أن تسبق وتنشّط جميع بادراتنا. ونحن نحيا لنجعل هذا القرب واضحًا. ولكن لا يمكننا أن ننقل قرب الله دون أن نختبره، دون أن نختبره كل يوم ...» (الخطاب إلى الأساقفة المشاركين في دورة التنشئة التي نظّمها مجمع الأساقفة ومجمع الكنائس الشرقيّة، 12 أيلول/سبتمبر 2019). فقط عندما نكون أبناء، ومن خلال خبرة الأبوّة وحدها يمكننا أن نشهد لبعضنا البعض، وأن ننقل لمن يلتقي بنا في الدرب تلك الإجابة على فراغ المعنى الذي يسود اليوم.

«لكنّ الإنسان، لكي ينمو فعليًا،
بحاجة إلى أن يستفزّه أو يساعده شيء
مختلف عنه، موضوعيّ،
شيء "يلتقي به"»

«لكي يصبح معروفًا،
دخل الله
حياة الإنسان كإنسان،
وفقًا لشكل إنسانيّ،
بحيث كانت أفكار الإنسان
وخياله وعاطفته
"محصورة" ومنجذبة إليه»

«هذا هو السؤال الهامّ،
لنا وللعالم.
إن لم نكن منجذبين، في الواقع، إليه
أصبحنا قنبلة موقوتة،
تحت رحمة أفكارنا،
تحت رحمة ردود أفعالنا،
تحت رحمة طريقة تفكيرنا،
وطريقة مواجهتنا للأمور.
باختصار، تحت رحمة العدم»

«لو لم يكن المسيح حاضرًا –

من خلال علامة إنسانيّة –
فلن يكون هناك
أيّ انبهار أو سؤال:
فهذا الانبهار الذي يتفجّر
في سؤال لا يمكن أن ينشأ
إلا أمام حضور حيّ»

«ما هو على المحكّ ليس التجمّع،
بل هو الإيمان.
والإيمان هو الاعتراف
بحضوره الحاضر»

«السلطة هي شخص يرى
المرء من خلاله
أنّ ما يقوله المسيح
يتوافق مع القلب»

«أنا مندهش من أنّ المسيح
ينتصر في واحد – أيّا كان –
من أنّني لا أستطيع أن أخفق في أن أعطي كلّ شيء»

«هذه هي المأساة.
قد لا نفهم نحن
ما يحدث الآن،
في حين أنّ الأخيرين يفهمونه»

«من خلال خبرة الأبوّة وحدها
يمكننا أن ننقل لمن يلتقي بنا في الدرب
تلك الإجابة على فراغ المعنى»